المدرسة والتربية على القيم الأخلاقية

إ: مسعودة عروش^(*)

مقدمة:

إن الرسالة الحضارية للأمم والشعوب، تتطلب توفير الشروط الموضوعية لتحقيق نماء الإنسان وتفجير مواهبه وتكامله المبدع الخلاق في مختلف اتجاهات الحياة، بما يحقق له معنى الوجود والاستخلاف في الأرض. وبناء الإنسان والبلوغ به الى تكامله الإنساني، هو الفعل الخلاق الذي يفوق بعظمته أي فعل. إذ تتجلى عظمته في القدرة على ترسيخ قيم الخلق والمعرفة والعطاء والإبداع، وفي جملة ما تقتضيه هذه الرسالة الحضارية، أن ندرك منطلقات العمل التربوي وآليات حركته وشروط نمائه الاجتماعي والثقافي، وذلك من أجل إعداد الأجيال وبناء المؤسسات، بما يحقق الشروط الحيوية لكل وجود حضاري وثقافي.

والاهتمام بتنمية الجانب القيمي يُعد من أهم المنطلقات والآليات التي تعتمد عليها المدرسة، حيث تعتبر من بين أهم المؤسسات التربوية، إذ تتخذ مجموعة من القيم البناءة والدائمة، تلك التي تخضع لها المجموعة، وتنظم حولها حياة الأفراد والجماعات، لأنها تؤمن بأن المعرفة الإيجابية، مهما تنوعت، تبقى ناقصة ما لم تؤيدها قيم أخلاقية.

فالمتعلم الذي لا توجه معارفه وقدراته نحو أهداف قيمة يتخذها لنفسه موجهاً ونبراساً، يصبح خطراً على نفسه وعلى المجتمع، لاسيما في هذا العصر الذي يشهد غزو ثقافي كبير، نتيجة التطورات العلمية والتقنية والمعلوماتية التي تفوق قدرته من أجل السيطرة عليها، أضف إلى ما يصاحبها من تغيرات قيمة بسيطة أو جوهرية تؤثر في تكوين الشخصية، وهو ما يؤدي إلى وقوع مشكلات وهزات في القيم والأعراف والمعتقدات في المجتمع. ولأهمية التربية في ترسيخ القيم الأخلاقية، وفي تشكيل المتعلم، تأتي هذه المحاولة لتلقي الضوء على:

- أهمية العملية التعليمية في اكتساب المتعلمين القيم الأخلاقية.

- أهمية المضامين التعليمية في اكتساب المتعلمين القيم الأخلاقية.

- أهمية المعلم في اكتساب المتعلمين القيم الأخلاقية.

من المعلوم أن المدرسة في خلاصتها تتكون من أنماط السلوك التي يمارسها المنتسبون إليها، ومن القواعد والمعايير التي تنظم أفعالهم، ومن المناهج والمقررات والمباني والأجهزة والخدمات والعاملين فيها. ويشكل المكان الذي يحضنها البوتقة التربوية للأحداث التربوية، والتفاعلات الثقافية والاجتماعية التي تتم في داخلها⁽¹⁾، إلا أن «جون ديوي»، يرى أن المدرسة هي قبل كل شيء، مؤسسة أوجدها المجتمع لإنجاز عمل خاص؛ هو الحفاظ على الحياة الاجتماعية وتحسينها⁽²⁾.

ويرى «كلوس Clause»⁽³⁾، أن وظيفة المدرسة تكمن في تحويل مجموعة من القيم الجاهزة والمتفق عليها اجتماعياً إلى المنتسبين إليها من الطلاب والتلاميذ⁽³⁾، إلا أننا لا يمكن أن نحصر غاية أو هدف المدرسة في مجال ضيق، وهو التنشئة الاجتماعية؛ التي تهدف إلى تكوين المواطن الصالح لمجتمعه، بل الاهتمام بالتربية الأخلاقية التي تهدف إلى تكوين إنسانية الإنسان، والبلوغ به إلى الكمال الإنساني، وذلك من خلال هدفها العام، والمتمثل بمعرفة معنى حقيقة وجوده في هذا الكون، ومهمته الأساسية التي تتمثل في العبادة بمفهومها الشامل.

1. أهمية العملية التعليمية في اكتساب المتعلمين القيم الأخلاقية:

يعتبر التعليم أشرف مهنة، وأفضل صناعة يستطيع الإنسان أن يتخذها حرفة له، لما لهذه المهنة من قدسية خاصة، فهي مهنة ربانية،

فإنه علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، وعلم آدم الأسماء كلها، وبعث الرسل معلمين. والمعلم يتعامل مع أشرف ما في الإنسان؛ عقله. فالعلم يزدهر كلما زادت نسبة الدين والأخلاق فيه⁽⁴⁾. إلا أن التعليم جزء من العمل التربوي، وهو الجانب المتخصص من هذا العمل، ويتصل بالتدريس وموقف المتعلم والتفاعل القائم بينهما في الموقف التعليمي⁽⁵⁾.

وعلى هذا الأساس، فقد حدد بدوي أهم عناصر مهنة التعليم، والمتمثلة في «القيم الأخلاقية»، إذ لا بد من وجودها حتى تعد مهنة⁽⁶⁾، واعتبر «الأبراشي»، أن الأخلاق الفاضلة أساساً لنجاح المعلم والمتعلم على السواء، فكل تربية لا تؤسس على الخلق الكامل تعد تربية فاشلة⁽⁷⁾. فالتربية الأخلاقية تعمل كضوابط ودوافع لرجال العلم، وترشد سلوكهم في شتى أنماط الحياة العملية، وهو ما يسمح بتقويم وتعويد الآداب الفاضلة وإعداد النشء لحياة كلها إخلاص وطهارة.

فعملية التعليم ليست مجرد معرفة تكتسب، أو تقويمات تقام، أو شهادات تمنح، إنما هي قبل كل شيء قيم أخلاقية تغرس من خلال المناهج في المتعلمين ليطبّقوها في حياتهم اليومية، ومن هذا المنطلق يذهب «مطواع»، إلى أن مهنة المدرسة ليست قاصراً على عملية التعلم وحشو الأذهان وحفظ وتسميع، بل يتعدى هذا إلى غرض التربية بمعناها الواسع في تهذيب الأخلاق والإعداد للحياة الصالحة⁽⁸⁾. وتؤكد النتائج التي توصل إليها معهد «جالوب» الأمريكي في الفترة 1975 – 1980 أن 79% ممن استطلع رأيهم في شأن غايات التعليم، أنه يجب أن يضطلع بتعليم الأخلاق للطلاب، وأن ينمي لديهم قيم السلوك الخلقية⁽⁹⁾.

ترى الدكتورة «سلوى عبد الله النجار»، «أن التربية الحديثة تواجه قضية هامة، وهي تعليم القيم باعتبارها أساس وجوهر الوجود الإنساني، خاصة بعدما طغت الحياة المادية وأصبحت هي التي توجه سلوك الأفراد وممارساتهم اليومية، مما أدى إلى تفشي العديد من الظواهر السلبية في المجتمع، وبالتالي فإن تعليم القيم في منظومة التدريس يتطلب تحديد دور المعلم والمتعلم والإدارة المدرسية والتعليمية من خلال أن المدرسة مؤسسة تعليمية تهدف إلى تعليم المتعلمين تعليماً علمياً ومهارياً وسلوكياً ووجدانياً واجتماعياً ونفسياً، وأنه ليس فقط يقدم كعائد اقتصادي للحصول على المهنة أو الوظيفة، إنما هو منهج حياة يهدف إلى رفع مستوى الإنسان، وتطور قدراته وإمكانياته للتكيف مع ذاته، والتعايش مع الآخرين»⁽¹⁰⁾. فالمدرسة إذاً، هي نظام متكامل يجسد المبادئ والقيم التي هي الإطار المرجعي للعمل المدرسي المعتمد من طرف المجتمع في بناء ذاته، ونشر قيمه ومبادئه وتوريثها للأجيال. فهي تهتم ببناء شخصية الأفراد وترقية حياة الجماعة، ومساعدتهم على تحقيق ذواتهم، وتنمية شعورهم بأهمية وجودهم في هذه الحياة، وهذا لا يعني أن المدرسة حين تعتمد هذه النظرة لا تهتم بالمعرفة، أو لا تعيرها الجهد اللازم، إنما يعني أن المعرفة لديها وسيلة لغاية أشمل وأكبر، وانتقاء نوع المعارف والطرائق هو الذي يقود إلى هذه الغاية، وهي أن تكون المدرسة مواطناً مفكراً يتمتع بشخصية متميزة، ويدرك حقيقة وجوده، ويعرف كيف يتعامل مع محيطه، وكيف يبحث عن المعرفة، وكيف يوظفها⁽¹¹⁾.

فعلى هذا الأساس دعا «الإمام ابن باديس» إلى الاهتمام بالعلم وتعلمه ونشره، وتحمل المشقة في سبيله، وحذر من جعله مطية للشهرة والجاه، أو لنيل الوظائف وتقلد المناصب، ونبه إلى أهمية استشعار الرغبة الذاتية في طلب العلم، لكونه الوسيلة التي يحقق بها الإنسان كماله، ويرقى تفكيره، ويزيل عن عقله غشاوة الجهل التي تحجب عنه حقائق الكون المحيط به، وظواهر الحياة التي تعيش معه وفيه. وبالعلم يكشف الحقائق ويتنكر الوسائل التي تؤهل الإنسان للعمل النافع الذي يفيد البلاد، ويصلح أحوال العباد، ثم إن طلب العلم واجب ديني، ومطلب اجتماعي وقيمة أخلاقية⁽¹²⁾. إلا أن المدارس في عصرنا الحالي، وفي معظم دول العالم تعلق أهمية كبرى على الحصول على المؤهلات والشهادات الدراسية، باعتبار التعليم كأداة أو وسيلة لذلك والحصول بعدها على وظيفة أو عمل⁽¹³⁾.

وبتغيير قيمة العلم بهذا الشكل، فهذا يمكن أن يعمل على تغييب قيمة الإخلاص والقيمة المعنوية للعلم، والتي تعد من بين أهم القيم التي تعتمد عليها العملية التعليمية، كما يعمل على تشجيع القيم الفردية التنافسية بين المتعلمين أكثر من تشجيعها على قيم التعاون

والعمل الجماعي. والمدرسة الجزائرية لا تشد عن هذا الأمر، بحيث تم تسجيل تراجع كبير للمؤسسات التعليمية عن مكانتها الريادية⁽¹⁴⁾، وذلك باستقلالها وتخليها عن دورها التربوي والتعليمي، وإكساب المتعلمين العلم والمعرفة والقيم الأخلاقية وتحويلها إلى مؤسسة لتوزيع الشهادات فقط.

لقد أصبح المتعلمون همهم الوحيد من التعليم هو الحصول على الشهادة والسعي إلى التوظيف بعدها، والنتائج المتحصل عليها في الدراسة الميدانية التي قمت بها بعنوان: «التربية الإسلامية والقيم الأخلاقية في المدرسة الجزائرية»، تؤكد ذلك، بحيث كانت نسبة أكثر من 70% من أفراد العينة تعتبر أن الهدف من التعلم هو الحصول على الشهادة والتوظيف بعدها بغض النظر عن جنس المتعلم، وهو ما أدى على انتشار السلوكات غير الأخلاقية، خاصة منها الغش في الامتحانات.

فمن الناحية القيمية، نجد أن المدرسة الجزائرية تعكس كل التوقعات التي كانت منتظرة منها، بحيث كان من المفروض أن تصدر قيمها إلى المجتمع، إلا أنها استوردت هي قيم الشارع إليها بتخليها عن قيمها الروحية والأخلاقية والإنسانية، وتبنيها قيم جديدة تهتم بالتحصيل الدراسي وإعداد الفرد للعمل وزيادة الانتاج، والتركيز على القيم المادية والاستهلاكية باستعمال العلم كوسيلة وأداة لتحقيق ذلك. وتتحول نظرة المدرسة لقيمة العلم أدى إلى وقوعها في صراع قيمي بين القيم القديمة (القيم الروحية والمعنوية الذاتية للعلم)، والقيم الوافدة عليها (القيم المادية والأداتية)، حيث أدى هذا إلى التأثير بالسلب على المتعلمين، مما جعل سلوكياتهم تتناقى والقيم الأخلاقية. فالدراسة التي قام بها فريق «مخبر الوقاية والأرغوميا بجامعة الجزائر»⁽¹⁵⁾، توصلت إلى أن هناك شبه إجماع للمربين على العملية العكسية لوظيفة المدرسة، واحتواء المحيط لها، لأنه رغم ما تقدمه من علوم ومعارف لا تترجم في السلوك، فقد انتقلت سلوكيات الشارع إلى الفضاء المدرسي بدلاً من العكس، حيث أصبحت الساحة المدرسية هي انعكاس لما هو موجود في الشارع، كعدم انضباط المتعلمين داخل الحرم المدرسي.

فبعضهم يتصرف تصرفات غير لائقة أو مخالفة لقيم المدرسة برفض ارتداء اللباس المدرسي (المترز)، أو التحايل في استعماله _ هو إلزامي في قرارات المؤسسة _، خاصة في المرحلة الثانوية، وارتدائهم لملابس غير محتزمة وغير محتشمة، تجرأ بعض المتعلمين على حمل أشياء ممنوعة في محافظهم مثل: الأسلحة البيضاء والمفرقات وغيرها... أو مثل: كتابة شعارات أو كلمات بذيئة جداً، أو رسوم مخجلة لا تليق على الجدران والطاولات بشكل فضيع وملفت للنظر، أضف إليها كثرة الشجار والسب والشتم بين المتعلمين وبين المعلمين والمتعلمين. أو تعاطي المخدرات من كلا الجنسين. أما التدخين فحدث ولا حرج.

وعلى هذا، فقد أصبحت المؤسسات التربوية وأتماط الفعل التربوي السائدة في مجتمعات العربية خاصة، تميل إلى بناء الإنسان القاصر والضعيف الذي لا يمكنه أبداً أن يشارك في بناء الحضارة، أو أن يتكيف حتى معها، وهذا يعود إلى تصلب الوعي التربوي وتقهره إلى مستويات مخزنة. فأصبح لا يعرف عن دور المؤسسات المدرسية غير أمر واحد؛ وهو أن هذه المؤسسات تعلم الأطفال، وتنمي إمكاناتهم المعرفية، وعلى هذا، فإن الوعي التربوي في جوهره لا يتجاوز حدود المظاهر الخارجية لوظائف التعليم، ودور المؤسسات التعليمية التربوية، والدليل على ذلك ما تعانيه المدارس من تعنت وتصلب وتصعد⁽¹⁶⁾.

وبسبب الوضع الذي آلت إليه المدرسة، خاصة بعد تفشي السلوكات غير الأخلاقية التي أجمع الجميع على خطورتها وضرورة معالجتها بشكل جدي وعلمي، يرى المهتمين بالشأن التربوي ضرورة الاهتمام أكثر بالمناهج الدراسية؛ التي تعد الأساس الذي يرتكز عليه بناء التربية والتعليم، وأن وضعها هو من أدق المسائل التربوية، وأعظمها خطورة، نظراً لدورها في ضبط وتحديد هوية المجتمع وقيمه وثقافته وفلسفة الحياة فيه وتطلعاته، كما أنه يعد الإطار النظري الذي يعتمد عليه المربون لقبولهم إنسان الغد.

ومن هذا المنطلق، يرى «الخوالده»، أن مصمم المناهج عليه أن يعمل على تطوير الأولويات لتوجيه اختياره للمهام الواجب إنجازها

والقدرة على أدائها، حيث تخضع هذه القرارات لتوجيه نسق القيم والالتزام بها داخل المدرسة، ولدى المتعلمين أنفسهم، وعلى هذا، فإن مصمم المناهج، هو أكثر من مجرد شخص فهو يحمل مشكلة مجردة عن القيم والأشخاص⁽¹⁷⁾.

2, دور المضامين التعليمية في اكتساب المتعلمين القيم الأخلاقية:

تعد المضامين التعليمية من أكثر عناصر المناهج إسهاماً في غرس القيم وتعزيزها في نفوس المتعلمين، وقد عرفت المضامين تغييراً في اتجاه استهداف العديد من المفاهيم الحاملة للقيم، وهذا في مختلف المواد المقررة؛ سواء الأدبية أو العلمية، وإن كانت في المواد الأدبية أبرز وأقوى. ومن أهم المواد التي تعنى مباشرة بغرس القيم الأخلاقية، نجد مادة التربية الإسلامية، حيث يتم إكساب المتعلمين القيم الأخلاقية من خلال اختيار النصوص أو المفاهيم أو الصور التي تعبر عن القيم، والاتجاه القيمي المراد غرسه في نفوسهم، كما أن للنشاطات التربوية الرياضية والفنية دور تربوي كبير في ذلك إن أحسن استغلالها.

فالمضامين التعليمية إذن، تعلم المتعلم أصول المعارف والصحة والآداب ومعالجة المشكلات الأخلاقية والعلمية والتربوية، وذلك من خلال امتصاص القيم الاجتماعية والدينية والقيّم الأخلاقية العليا، التي من شأنها أن تساهم في نشأته نشأة سليمة⁽¹⁸⁾، كما أنها تشتمل على منظومة من القيم الأخلاقية التي تغذي فكر ووجدان المتعلمين الذين سوف يشكلون مجتمع المستقبل، ويتم من خلالها المحافظة على الفرد والمجتمع، وعلى هويته، وما ينبغي على مصممي المضامين التربوية التبصر في احتياجات الوطن والمجتمع والإنسانية للقيّم الأخلاقية التي يجب على المتعلم أن يحملها.

ومن بين أهم القيم التي تحث عليها الدراسات التربوية والاجتماعية نجد القيم الدينية، فهي ليست مبادئ نظرية، وإنما هي سلوك وعمل وواقع، كما تتجه إلى تكوين الفرد الصالح الذي من خلاله يتم تحقيق قيام المجتمع القوي السليم الذي يتعاون أفرادها على البر والتقوى، وتستقر دعائم الكفاية والعدل والسلام⁽¹⁹⁾. هذه الحقيقة المتعلقة بأثر مضامين المادة التعليمية على اتجاهات وقيم المتعلمين، أدت إلى إجراء الكثير من البحوث التي استهدفت الكتب المدرسية في مختلف المستويات، كما استهدفت كتب المطالعة المعتمدة في المدارس، وكذا أسئلة التمارين والتقويمات.

تعد دراسة «موقف الحماداني وعون الشريف» لسنة 1969، من أوائل الدراسات العربية التي استخدمت أسلوب تحليل المحتوى للكشف عن القيم الأخلاقية في كتب القراءة بالمرحلة الابتدائية بالسودان، وكانت أهم النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة؛ أن هذه الكتب عاجزة عن تقديم قيم خلقية واضحة للتلاميذ⁽²⁰⁾.

ودرس «محمد يتيّم» من جهته موقف المتعلمين من القيم كما وردت في الكتاب المدرسي، وذلك من خلال مقارنة بين نظامين تعليميين مختلفين، واستنتج أن النظامين التعليميين يقدمان قيماً مختلفة من متن لآخر، بالإضافة إلى انعدام الانسجام الترتيبي بينهم، حيث يركز الخطاب العمومي على القيم الدينية والأخلاقية والوطنية، ثم تليه القيم الشخصية والاجتماعية والعلمية. أما الخطاب الخاص، فيركز على القيم العلمية والفكرية الموجودة في المواد العلمية كالرياضيات والعلوم والتكنولوجيا لتتدرج إلى القيم الوطنية والدينية والأخلاقية. وأدى هذا الاختلاف، وعدم التجانس القيمي بين النظامين إلى صراع نفسي اجتماعي لدى المراهق المغربي⁽²¹⁾.

أما دراسة «حسن جعفر الخليفة»، فكانت تهدف إلى معرفة مدى تكرار مضمون 42 قيمة أخلاقية معدّة مسبقاً في كتب اللغة العربية للأطوار الثلاثة لدول الخليج العربي، وتوصل الباحث إلى أن مجموع تكرار المضامين الأخلاقية في الكتب التي تم تحليلها بلغ 9913 مرة⁽²²⁾. وقد تصدرت القيم الأخلاقية التالية على المراتب الأولى بالترتيب: قيمة الصداقة، بر الوالدين، والعلم⁽²³⁾. فما يمكن استنتاجه من ترتيب هذه القيم، هو وجود أهم القيم الأخلاقية التي يجب أن يراعى توفرها وبقوة في المضامين التربوية لم يركز على وجودها، فمثلاً: قيمة الصدق جاءت في المرتبة 26، قيمة الإخلاص في المرتبة 21، قيمة الحياء في المرتبة 35، وحب اللغة العربية في آخر

الترتيب.

وقام الأستاذ: «عبد الباسط هويدي»، بدراسة كان الهدف منها التعرف على ما إذا كانت المنظومة التربوية الجزائرية من خلال الإستراتيجية الجديدة للتدريس عن طريق المقاربة بالكفاءات تعمل على تكوين الفرد المنسجم مع أفراد مجتمعه وثقافته ودينه وانتمائه لوطنه والمعتز بانتمائه العربي الإسلامي، أم لا؟ وذلك من خلال تحليل محتوى كتب التربية المدنية لمرحلة التعليم المتوسط، باعتبارها المادة المنوطة لها تحقيق هذا الهدف، ولقد توصل الباحث إلى أن منهاج التربية المدنية المعد وفق إستراتيجية التدريس وفق المقاربة بالكفاءات أولى أهمية بالغة لقيم الانتماء للمجتمع والضبط الاجتماعي، في حين أهمل بشكل ملحوظ قيم التفاعل الاجتماعي الإيجابي والقيم الأخلاقية والإنسانية⁽²⁴⁾. وهذه النتيجة المتوصل إليها تعزز الآراء التي جاءت منتقدة هذه المقاربة، كونها تحمل القيم الأخلاقية والإنسانية، مما أدى إلى الاضطرابات النفسية والصراعات القيمية التي يتخبط فيها المتعلمين.

كما جاءت دراسة «زبيدة حداب»، والتي تناولت بالتحليل مادة القراءة في اللغتين العربية والفرنسية بالجزائر، لتؤكد عن وجود مضمونين قيميين للغتين، فكتب القراءة للغة العربية تعكس القيم التقليدية والخضوع لسلطة الكبار المستنبط من القيم الدينية، أما كتب اللغة الفرنسية فتعكس قيم التحرر وتوجه إلى المعرفة كأداة للسلوك، كما تحث على متابعة الدراسة العلمية والتقنية والخطاب الديني ملغى من النصوص الفرنسية، وتفسر الباحثة هذه الوضعية للخطابين المتباينين على أنها مقصودة، وأنها مستنبطة من الرؤية الثنائية الدينية والعلمانية للتربية⁽²⁵⁾.

إلا أن المنهج والأسلوب والكتاب كلها أمور مهمة في التربية على القيم الأخلاقية، ولكن أهم منها المرابي المعلم، العنصر الفعال في عملية التربية، فالمعلم قد يستطيع بإخلاصه وقدراته أن يتدارك قصور المنهج والكتب، ويمكنه بعكس ذلك أن يفسد المنهج الصالح ويميت الكتاب الحي، ويجعل جذوة الطالب المتقدم إلى رمد⁽²⁶⁾، وهو ما ذهب إليه أيضاً «عماد صالح إبراهيم محمد»، بقوله: «مهما كان الكتاب المدرسي جيد العبارة رفيع الأسلوب، موافق الفكرة، ومهما روعي في وضعه من القواعد والأسس، فإنه لن يحقق الهدف المنشود إذا لم يرق على تدريسه معلم يتمتع بالكفاءة والقدرة والوعي والإخلاص والتقوى»⁽²⁷⁾.

3, دور المعلم في اكتساب المتعلمين القيم الأخلاقية:

من السهل تأليف الكتب المدرسية، وتضمينها كم هائل من القيم الأخلاقية، كما أنه من السهل وضع وصياغة المناهج بطريقة علمية مدروسة، تحمل القيم الأخلاقية المراد تلقينها للمتعلمين، وأنه من السهل الاستعانة بكل الوسائل البيداغوجية الحديثة لذلك، لكن يبقى هذا كله حبراً على ورق، ولا يتجسد على أرض الواقع إن لم يجد من يترجمه إلى سلوك وتصرفات وأفكار، فأول من يحمل أو يطبق هذه الأفكار، وهذه القيم الأخلاقية؛ هو المعلم، بحيث تصبح منهج حياته وتتطابق أعماله وأقواله، لأن المعلم هو الأداة الفاعلة في العملية التربوية، وهو عنصر هام ومؤثر على المتعلمين، بل على المجتمع بأكمله، ودعامة أساسية من دعائم الحضارة، فهو صانع أجيال، وناشر علم، ورائد فكر، ومؤسس نهضة.

فإذا كانت الأمم تقاس برجالها، فالمعلم هو باني الرجال وصانع المستقبل. وفي هذا يقول «محمد عوض الترتوري»: «وإذ ما قيل أن مستقبل الأمة، ومصيرها إنما يكون في أيدي أولئك الذين يربون الناشئة، فلن يكون ذلك القول بعيداً عن الصحة، بل مطابقاً لها⁽²⁸⁾. وعليه فإن المعلم يلعب دوراً بالغ الأهمية في عملية التعليم والتعلم، ويتعدى دوره إلى العملية التربوية كلها، بل إلى عمليات التنشئة الاجتماعية، وعلى هذا فإن مسؤولية المعلم في اكتساب المتعلم القيم الأخلاقية مسؤولية كبرى، خاصة وأنه عنصر هام من عناصر الموقف التعليمي الذي يتفاعل معه المتعلم.

ولأنه العنصر القادر على التأثير في بقية المكونات الأخرى من خلال مختلف الأدوار التي يقوم بها والتي يجعلها في وضع يخدم المتعلم

لاكتساب القيم، ومن أهم هذه الأدوار نجد:

• دوره كمصدر للقيم المعرفية: فقد أصبح المعلم في هذا المجال مساعداً في عملية التعلم والتعليم، حيث يساهم مع الطلاب في الاستعداد للدرس والبحث والدراية والتوجيه البناء، بالإضافة إلى قدرته على صياغة الأهداف الدراسية والعمل على تحقيقها بكل إخلاص.

• دوره كمعلم القدوة: فالقدوة تعتبر من أهم الوسائل غير المباشرة في اكتساب القيم للمتعلمين، وذلك من خلال عملية التفاعل بين المعلم والمتعلم، والقدوة عامل ذو حدين، إما عامل إصلاح أو عامل هدم، فالقدوة الحسنة من أرقى أساليب التربية التي تؤثر بشكل فعال في تكوين اتجاهات الشخصية الفكرية وتحديد أنماط سلوكها في كل مرحلة من مراحل تطورها، والقدوة السيئة تعد من أخطر العوامل التي تحطم شخصية المتعلم. وعلى هذا حث الكثير من العلماء والتربويين أن يحتسب المعلمون من تصرفاتهم وأقوالهم وأفعالهم، وأن تكون مدروسة بشكل دقيق، لأن الطرف الآخر (المتعلم)، يتأثر بها بشكل كبير، وترسخ في شخصيته وتتطبع بها، ويصعب بعد ذلك تغييرها أو تعديلها، خاصة في المراحل العمرية الأولى.

• دور القيم الإنسانية: وما يترتب على المعلم من وضع للخطط الهادفة، والأنشطة الصفية ولا صفية التي تساعد في توظيف القيم المعرفية، وربطها بالواقع، ولكي يقوم بهذا الدور على أحسن وجه يتطلب من المعلم أن يراعي النمو الشامل للمتعلمين، وأن يحمل قيم إنسانية تمكنه من ربط علاقات اجتماعية معهم والمجتمع المدرسي بأكمله.

نظراً لأهمية المعلم والمسؤولية الملقاة على عاتقه، ولمختلف الأدوار التي يقوم بها، قامت دراسات وأبحاث كثيرة ومتعددة لدراسة المعلم، من بينها دراسة «إيرل بولياس وجيمس يونغ»، في كتابهما: المعلم هو شيء كثير (A Teacher is Many Things)، وكانت هذه الدراسة حول صفات وخصائص المعلم التي يجب أن يتصف بها، التي زادت عن 20 صفة من أهمها⁽²⁹⁾:

• المعلم مرشد، فهو يرشد في رحلة المعرفة، يعتمد على تجاربه وخبرته، لأنه يعرف الطريق ويهتم اهتماماً بالغاً في تعليم التلاميذ.

• المعلم مرب، يعمل وفقاً للمفهوم القديم للتعليم، فهو يساعد الطالب على التعلم.

• المعلم قدوة في المواقف، في الكلام في العادات، في اللباس.

• المعلم ناصح أمين، وصديق حميم، ومبدع وحافظ على الإبداع.

• المعلم رجل متنقل، قصاص، ممثل، مناظر، باني المجتمع.

أما «محمد عوض الترتوري»، فيرى أن من صفات المعلم الجيد⁽³⁰⁾:

• تكامل الصفات الشخصية المستقيمة من حضور الذهن والدقة في الأداء وحسن التصرف، ليكون قادراً على الاعتماد على حواسه وصحته وحيويته، لأن العمل المستمر يتطلب الجهد والحرص والمهمة العالية والمثابرة.

• الحب والرغبة الأكيدة في هذه المهنة، لأن الإكراه عليها يولد التبدل.

• الإمام الواعي بالثقافة العامة، والمعرفة بالبيئة الاجتماعية التي تحيط به، فالضحالة في هذه الأمور تجعل المعلم لا يعطي شيئاً يذكر، وسيضل في دوامة الفراغ الثقافي، ولأن هذه المهنة لا تقبل أبداً هذا النوع من المعلمين.

• المحبة الدائمة للطلاب والمعاملة الحسنة الممزوجة بالصدق والأمانة والمرونة في تحمل هذه الأمانة وتوصيلها بكل تفاني للأجيال.

غير أن «محمد محمود الخوالده»، يرى أن تكنولوجيا المعلومات تفرض بعض المتغيرات على خصائص المعلم، وعلى دوره التعليمي داخل المدرسة، وعلى تربيته وتأهيله حتى يصبح عنصراً فعالاً يؤدي وظائفه التعليمية بشكل متنسق مع مستحقات عصر المعلومات، ومن أهم هذه المتغيرات نجد⁽³¹⁾:

• إثراء البيئة التعليمية التعلمية بإدخال عناصر جديدة تستدعيها تكنولوجيا المعلومات التي تسمح للمعلم أن يحرر نفسه من التنظيمات النمطية الشكلية لدوره التقليدي السابق، ويعمل على تنظيمات إبداعية متنوعة.

• بما أن المعلم الحقيقي هو عامل تغيير في المجتمع، وليس عامل تجميد أو تكريس للواقع الاجتماعي والثقافي، فيجب أن تعاد تربية المتعلم على أساس تمثل تكنولوجيا المعلومات في البنى العقلية والأدائية للمعلم، حتى يتمكن من تعلمها واستخدامها في وظيفته التعليمية.

• إعطاء المعلم الحرية في تقديم المادة التعليمية للمتعلمين باختيار أساليب عرضها عليهم وفقاً لمتطلبات الأهداف التعليمية المقصودة في خصائص المتعلمين، كما ينبغي أن يعطى المعلم المزيد من الحرية في طرق تقييم المتعلمين في تحصيلهم المعرفي وسلوكياتهم، أو إعادة تربيتهم في سياق قيم ديمقراطية التعليم والفروق الفردية وحقوق الإنسان وحرية في الاختيار والعمل.

خلاصة:

بما أن المدرسة تشمل على «نظرية المعرفة»، لتحديد التربية بواسطتها مناهجها القائمة على القيم الأخلاقية المنبثقة من عقيدة وثقافة المجتمع، والتي تساهم في تشكيل شخصية المتعلم (الفرد) الذي يعتبر اللبنة الأساسية في المجتمع. فالقيم تعد معيار تفضيلي يمثل إطاراً مرجعياً يحكم تصرفات الفرد في حياته العامة والخاصة، كما تعمل كموجهات لسلوكه ووقايتة من الوقوع في الخطأ أو الانحراف، فهي تعمل كعامل وقائي له، وتحفظ للمجتمع بذلك تماسكه وتحدد له أهدافه ومثله العليا ومبادئه الثابتة التي توفر له التماسك للممارسة حياة اجتماعية سليمة، فهي موجه لسلوك الأفراد والجماعات، وتقي المجتمع من الانحرافات، كما تلعب دوراً هاماً في تنمية المجتمع، وعلى المستوى الإنساني تعمل على نبذ العنف والتطرف والتعصب والصراعات.

وعليه، فإن علاقة المدرسة بالتربية على القيم الأخلاقية علاقة وطيدة، فهي تنطلق باعتماد المنظومة التربوية التعليمية على فلسفة تربية منبثقة من اعتقاد وثقافة المجتمع المتشعبة بالقيم الأخلاقية، هذه القيم التي يجب على مصممي المناهج مراعاتها وإبرازها في المضامين التعليمية كلها دون استثناء، فهي البناء الذي ترتكز عليه التربية والتعليم، وأن وضعها هو من أدق المسائل التربوية وأعظمها خطورة، نظراً لدورها في ضبط وتحديد هوية المجتمع وقيمه وثقافته وفلسفة الحياة فيه وتطلعاته.

كما يجب على المنظومة التربوية مراعاة اختيار المعلم الكفو الذي تتجسد فيه هذه القيم، ومن ثم انتقالها للمتعلمين عن طريق القدوة والمحاكاة، بحيث تصبح منهج حياته وتتطابق أعماله وأقواله، لأن المعلم هو الأداة الفاعلة في العملية التربوية، وهو عنصر هام ومؤثر على المتعلمين، بل على المجتمع بأكمله ودعامة أساسية من دعائم الحضارة.

الهوامش:

- (^١) مسعودة عروش: طالبة دكتوراه علوم، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الجزائر 02 «أبو القاسم سعد الله».
- (^٢) علي وظفة، عبد الله المجيد: علم الاجتماع التربوي والمدرسي، دار معد، دمشق، 2008، ص: 18-19.
- (^٣) تيسير شيخ الأرض: فلسفة التربية عند جون ديوي، مجلة المعلم العربي، العدد الخامس، 1985، ص: 373.
- (^٤) علي وظفة، عبد الله المجيد: مرجع سابق، ص: 40.
- (^٥) عاهد مرتجي: مدى ممارسة طلبة المرحلة الثانوية للقيم الأخلاقية من وجهة نظر معلمهم في محافظة غزة، رسالة ماجستير، قسم أصول التربية، كلية التربية، جامعة الأزهر، 2004.
- (^٦) سالم هيكل: تربية وتنشئة الفرد في إطار متوازن بين ثقافة المجتمع والاحتكاك بالثقافات المجتمعية الأخرى (دراسة مفاهيمية تحليلية)، كلية التربية، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، 2002، ص: 10.
- (^٧) عاهد مرتجي: مرجع سابق، ص: 64.
- (^٨) محمد عطية الأبراشي: التربية الإسلامية وفلسفتها، ط 03، دار الفكر العربي، القاهرة، 1976، ص: 173.
- (^٩) إبراهيم عصمت مطاوع: أصول التربية، دار المعارف، القاهرة، 1980، ص: 138.
- (^{١٠}) علي العاجز، عطية عمري: القيم وطرق تعلمها وتعليمها، دراسة مقدمة إلى مؤتمر كلية التربية والفنون، بعنوان القيم التربوية في عالم متغير، المنعقد في جامعة اليرموك، إربد، الأردن، 1999، ص: 04.
- (^{١١}) سلوى عبد الله النجار: واقع تعلم القيم في التعليم المدرسي، المنتدى الثاني للمعلم، «رؤية جديدة نحو تطوير أداء المعلم»، جامعة الكويت، أفريل 2009، ص: 4 - 5.
- (^{١٢}) عبد القادر فضيل: المدرسة في الجزائرية حقائق وإشكالات، جسر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص: 15.
- (^{١٣}) عبد القادر فضيل: فلسفة ابن باديس في مجال التربية، بتصرف، من الموقع: www.binbadis.net
- (^{١٤}) محمد منير مرسي: التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية، المكتبة الشاملة.نت، ص: 49.
- (^{١٥}) فقد احتلت الجزائر المرتبة 119 عالمياً من حيث مؤشر جودة التعليم، وذلك في تقرير للمنتدى الاقتصادي العالمي (دافوس)، في تصنيف شمل 140 دولة من القارات الخمس.
- (^{١٦}) محمد بومخلوف وآخرون: واقع الأسرة الجزائرية والتحديات التربوية في الوسط الحضري، سلسلة احذر من الخطر قبل فوات الأوان، مخبر الوقاية والأرغوميا، جامعة الجزائر 02، 2008، ص: 283 - 284.
- (^{١٧}) علي وظفة، عبد الله المجيد: مرجع سابق، ص: 09 - 10.
- (^{١٨}) محمد محمود الخوالده: بناء المناهج التربوية في تصميم الكتاب المدرسي، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، 2004، ص: 21 - 22.

- (18) ناصر ميزاب: نحو محاولة الكشف عن القيم والوسائط الناقلة لها عبر نصوص كتاب القراءة للسنة الخامسة ابتدائي، مخبر تطور الممارسات النفسية والتربوية، جامعة مولود معمري، العدد 09، تيزي وزو، الجزائر، ديسمبر 2012، ص.ص: 211 – 232.
- (19) بوكومة (أغللال) فاطمة الزهراء: «دور المدرسة في التربية على القيم»، مجلة عالم التربية، العدد 21، الدار البيضاء، المغرب، 2012، ص: 257.
- (20) حسن جعفر الخليفة: «دراسة تحليلية للمضامين الأخلاقية في كتب اللغة العربية بالصفوف الثلاثة الأولى من مراحل الابتدائية بدول الخليج العربي»، مجلة رسالة الخليج العربي، العدد 93، بتكليف من مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، المملكة العربية السعودية، 2004.
- (21) طاهر بوغازي: القيم التربوية (مقاربة نسقية)، منشورات الخبر، الجزائر، 2010، ص.ص: 90 – 91.
- (22) جاءت دولة الإمارات العربية المتحدة في المرتبة الأولى بتكرار للقيم قدر ب 1846 مرة، تلتها المملكة العربية السعودية ب 1813 مرة، ثم دولة الكويت ب 1689 مرة، ثم قطر ب 1593 مرة، ثم سلطنة عمان ب 1580 مرة، فمملكة البحرين ب 1392 مرة.
- (23) حسن جعفر الخليفة، مرجع سابق.
- (24) عبد الباسط هويدي: «الأبعاد المجتمعية في المضامين التعليمية، من خلال تحليل محتوى كتاب التربية المدنية لمرحلة التعليم المتوسط»، مجلة العلوم الإنسانية، العدد 22، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، جوان 2011، ص.ص: 89 – 103.
- (25) طاهر بوغازي: مرجع سابق، ص: 91.
- (26) يوسف القرضاوي: قضايا إسلامية معاصرة، ط 02، مكتبة الرحاب، الجزائر، 1990، ص: 44.
- (27) عماد صالح إبراهيم محمد: المعلم والمتعلم في التربية الإسلامية، موجه التربية الإسلامية، 2002، من موقع الدراسات والبحوث، www.minshawi.com.
- (28) محمد عوض الترتوري: إعداد المعلم وتأهيله في المدرسة التربوية الحديثة، المنشاوي للدراسات والبحوث، من الموقع: www.minshawi.com
- (29) عماد صالح إبراهيم محمد: مرجع سابق.
- (30) محمد عوض الترتوري: مرجع سابق.
- (31) محمد محمود الخوالده: أسس بناء المناهج التربوية، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2004، ص.ص: 44 – 45.